الشخصية

الموسيقية المصرية

لا شبهة في أن الموسيقى ركن من أركان النهضة . ورحم الله من ربط نهضة أمة من الأمم بنهضة الفن فيها . وهـذا يصدق على مصر كما يصدق على غيرها ، فالموسيقى صاحبت نهضة البلاد في كل عصر من عصورها .

ففي عصر اسماعيل بدأت تظهر نهضة غنية بشائرها وقادها المرحوم عبده الحمولي الذي ألحقه اسماعيل العظيم بحاشيته واصطحبه في رحلته الى الاستانة حيث اجتمع هنـاك بالموسيقيين الاتراك فأخذ عنهم أنغاماً طريفة وتعلم منهم ضروباً جديدة في التلحين والتنغيم وعن الحمولي أخذ الموسيقيون المصريون وقتئذ ، وطبعوا الأسلوب التركي بالأسلوب المصري . وبعده ظهرت شخصيات موسيقية مصرية سارت على طريقته ونهجه .

وحافظت موسيقى عبده الحمولي أو بعبارة أدق مدرسته على أساس الموسيقى الشرقية أي « التخت » وطرائقه المتبررة . ولم تكن للموسيقى المسرحية أي أثر اللهم إلاّ إذا اعتبرنا ما كان ينشد خلال الفصول أو في أثنائها في فرقتي أبي خليل القباني وسليمان الفرداحي موسيقى مسرحية . ثم ظهر الشيخ سلامه حجازي وكان لصوته القوي أعظم الأثر في اجتذاب الجمهور اليه وفي اقباله على الموسيقى المسرحيـة ، إن جاز لنـا أن ندعوها كذلك مع التجاوز الكبير ، إذ أن الموسيقى المسرحية وقتئذ كانت عبارة عن موسيقى تخت ليس إلاّ ، إلاّ أنها بدلاً من أن تعزف على العود والقانون والناي أصبحت تعزف على البيانو والفلوت والترمبون ، أما تصوير المعاني وإعطاء الألفاظ ما يناسبها من الموسيقى فكان غير معروف تقريباً .

ولقد كانت عناية المغفور له الخديوي اسماعيل بالموسيقى وتشجيعه للموسيقيين ما هيأ لها التقدم ولكن في حدود خاصة هي تأثرها بأسلوب الموسيقى التركية أولاً وبأوضاع التخت ثانياً ، ولأن الفن كان يرنو الى ارضاء الطبقة الخاصة ثالثاً .

وإذا كانت الشخصية المصرية قد ظهرت إبان مقاومة الاحتلال الفرنسي وبرزت في عصر محمد علي الكبير وازدهرت في عصر اسماعيل، فإنها اكتملت في عصر الملك فؤاد رحمه الله وجلالة الفاروق العظيم.

وهذه الشخصية المصرية بدأ أثرها واضحاً في الموسيقى منذ عام ١٩١٨ حتى الآن. وتكوّنت أسسها وتكاملت مقوماتها في سني الثورة من عام ١٩١٨ — ١٩٢٣. وعاون على استكمال أسبابها ظهور فنان عظيم هو المرحوم سيد درويش الذي تأثرت موسيقاه بالنهضة الوطنية تأثراً بليغاً.

والواقع أنه في الفترة ١٩١٨ وما بعدها، ظهرت القومية المصرية عارفة في كل جانب من جوانب الحياة المصرية. وظهر روّاد مصريون في كل فنّ وعلم وعمل.

ولظهور سيد درويش في عالم الموسيقى أهمية قصوى في خلق الشخصية الموسيقية المصرية الصميمة. الأمر الذي يحدو بي الى أن أعرض للمامة عاجلة بفن سيد درويش من ناحية صبغته القومية.

لم يحدث سيد درويش في موسيقى التخت ما أحدثه من تغيير وانقلاب عظيم في موسيقى المسرح، تغيير يبلغ حدّ الخلق والانشاء. فالشيخ سيد إذاً أبقى على روح التخت التقليدية ولكنه وضع أساس التجديد فيه، هذا التجديد الذي سار رويداً حتى أصبح التخت على ما هو عليه الآن من سيطرة المنولوج والاكثار من عنصر الآلات الموسيقية الصامتة والاتجاه نحو الألحان المعبرة، أي على نحو ما هو متبع في المسرح ولكن في نطاق محدود.

أما في المسرح فقد ظهر نبوغ سيد درويش الفطري وبدت عبقريته الفذّة فهو المجدد الحقيقي الذي خلق الموسيقى المسرحية المصرية خلقاً، وتمتاز ألحان سيد درويش ويتسم فنه على العموم بميزات كثيرة أهمها:

﴿أولا — التنوع﴾ فانك لتسمع ألحان الشيخ سيد على كثرتها وعددها النوفير فلا تلمح ثمة تشابهاً بينها. وهذه الميزة جليلة لسيد درويش فانا لنسمع الآن ألحاناً هي في الواقع عبارة عن ألحان قديمة مع تغيير الألفاظ وعبارات موسيقية وردت في ألحان معروفة وعلى تنوع ألحان الشيخ سيد وعدم تشابهها فان لها طابعاً خاصاً وذلك بسبب قوة شخصية الشيخ سيد.

﴿ثانياً — القوة﴾ وتلك من ميزات الشيخ سيد النادرة. فانك لتتبين من عبارات ألحانه سواء الغرامية أم الهزلية أم الوطنية تلك القوة التي تهز المشاعر وتملأ النفوس طرباً

مصدره الحياة والفرة . ولقد لحن سيد درويش عدداً عظيماً من الأناشيد والألحان الوطنية أخصها بالذكر . قوم يا مصري ، بلادي بلادي ، لك حبي وفؤادي ، وبني مصر مكانكو تيها . وغير هذا من القطع التي اشتملت عليها كثير من رواياته المسرحية الغنائية مثل ألحان اليوم يومك يا جنود ، واحنا الجنود زي الأسود ، وأحسن جيوش في الأمم جيوشنا . الخ .

﴿ ثالثاً — التلاؤم مع الذوق المصري ﴾ ولست أعني بهذا أن سيد درويش لم يتأثر بالموسيقى الغربية . فقد تأثر بها كثيراً إلا أنه هضمها هضماً كافياً فأخرج للناس هذه الموسيقى الجميلة الجامعة لحسان الموسيقى الشرقية وقوة الغربية . ولقد كان الشيخ سيد يقدر الموسيقى الغربية حق قدرها كفناً بسماعها ، حتى لقد حاول في كثير من الأحوال مزج الفنين فكانت قوة فنه تمكنه من صياغة ما يريد فنًّا شرقيًّا مصريًّا لا أثر فيه للعجمة . ومن مفاخر سيد درويش ذكاء حسه وسرعة تأثره بما يسمعه من موسيقى ولكنه احتفظ في جميع ألحانه بطابعه العربي المصري وشخصيته القوية .

﴿ رابعاً — مراعاة المعنى والوسط ﴾ تلك هي أهم ميزات موسيقى الشيخ سيد وأعظمها وأروعها ، وهي التي أثارت اهتمام الناس وإعجاب النقاد ، وجعلته بحق خالق الموسيقى المسرحية المصرية . ولقد نجح الشيخ سيد في هذا المضمار نجاحاً يثير الإعجاب حقًّا . . . ولا شبهة في أن سماع بعض مقطوعات سيد درويش التي تزخر بها موسيقاه المسرحية تجعل المرء يدرك الى أي حد بعيد وصل رحمه الله الى جعل الموسيقى والمعنى متلازمين متآلفين ، والى ربط الموسيقى باللفظ حتى كأن الموسيقى خلقت ، له وكأنه خلق لها . ولقد كان سيد درويش يبذل في سبيل اخراج المعنى اللفظي في ثوب موسيقي جهداً جباراً . ولم يكن يتعمل التطريب ، بل كان مقصده الأسمى ابراز المعنى في حلة موسيقية . أما الطرب فيأتي متى ساير روح الموسيقى والشعر .

فالشيخ سيد إذاً قدم الى المسرح الغنائي ألواناً كان يجهلها من قبل هي من صميم الحياة المصرية الأصيلة . إذ كان يختلط بكافة طبقات الشعب فأمكنه أن يضع لكل منها ما يناسبها من نغم . وكان يحيط نفسه بالجو المناسب للقطعة التي يلحنها . ومن ثم لم تعرف الموسيقى في مصر حتى اليوم موسيقيًّا يمكننا أن نصفه بالشعبي بحق ، خلاف سيد

درويش . وكان سيد درويش ينشد السهولة والتيسير في ألحانه الشعبية . وكان يقول إن خير الألحان ، ما كان قريباً بعيداً عن التكلف، لذلك كان شديد الاعجاب بالألحان التي ينظمها ويلحنها الشعب نفسه . وسيد درويش في تعبيره وتصويره لبلاده لا يقل في هذا السبيل عن أي موسيقي عالمي ، وهو ان اختلف مع غيره من الموسيقيين العالميين فالاختلاف في الاطار الذي يحيط بالصورة اللحنية ، أما الصورة نفسها فواحدة وقوامها صدق التعبير والتصوير .

اقتبس سيد درويش موسيقاه من روح الشعب المصري نفسه . ولقد تأثر — كما تأثر غيره من الفنانين والأدباء والساسة بثورة عام ١٩١٩ ، وما بدا فيها من قوة القومية المصرية الصميمة ، فلجأ الى الشعب يستوحيه ألحانه ، وكانت نهضة المسرح الغنائي مما أسعفه في ابراز مواهبه . إذ الطلق يلحن لكل مناسبة ولكل معنى ولكل فكرة ، دون أن يتقيد بقيود التخت الغنائي وأوضاعه القائمة على الموسيقى الغربية وعلى عدد محدود من الآلات الموسيقية .

فمن هذه الفترة أي ١٩١٨ — ١٩٢٣ بدأ ظهور الموسيقى المصرية الأصيلة التي تستمد كيانها وقوتها من حيوية الشعب المصري ويقظته .

وكان لزاماً أن تصاحب النهضة في التلحين نهضة أخرى في التنظيم العلمي للموسيقى . وهذا ما أولاه عنايته الكريمة المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول . ففي عام ١٩٣٢ افتتح رحمه الله المؤتمر الأول للموسيقى الشرقية بغية تنظيم الموسيقى الشرقية ووضع قواعد ثابتة للسلم الموسيقي . ولم ينجح المؤتمر في مهمته الأصلية بسبب اختلاف آراء مندوبي البلاد الممثلة في المؤتمر على نسبة صوت الربع في السلم الموسيقي الشرقي، اختلاف مرجعه تأثر كل مندوب بموسيقى بلاده . وفي رأيي أنه يحسن وضع نسبة لربع الصوت تقرها البيئات المصرية وحدها . ولا ريب أن الموسيقيين في البلاد العربية سيشعرون في هذا المضمار لتأثرهم الشديد بالموسيقى المصرية في الوقت الحاضر . ولتثبيت السلم الموسيقي أهمية قصوى في ارتقاء الموسيقى الشرقية .

والواقع انه كان لزاماً أن تتطور الموسيقى المسرحية المصرية تطورها الطبيعي وينتهي

المطاف بها الى شوء الأوبرا (كما حدث للموسيقى الغربية من قبل) بيد أن وفاة سيد درويش عام ١٩٢٣ حالت دون ذلك ، فما لبثت الموسيقى المسرحية أن اضمحلت إذ لم تجد من الملحنين الآخرين ما يغذيها من الألحان المسرحية الخلقة ، يضاف الى ذلك عامل هام هو طغيان السينما على الفن المسرحي ، وانه وان أصبح الغناء ولا سيما الوارد في الأفلام والتمثيليات الموسيقية الصغيرة قد أصبح أقرب الى الصدق في التعبير إلا أنه يلاحظ قلة الاقتباس من الموسيقى الغربية ، ولعل هذا مرجعه ضعف الشخصية الموسيقية عند كثير من الملحنين من جهة ، والى الاقبال على الانتاج الموسيقي على نطاق واسع جداً الرواج الأفلام والراديو .

وأيًّا ما كان الحال فان الشخصية الموسيقية المصرية التي خلقتها ثورة ١٩١٩ وكان ترجمانها سيد درويش قد ثبتت أركانها وتوطدت دعائمها ، فأصبح لها لونها المميز وطابعها الخاص . ولقد بلغ من قوتها أن أثرت على الموسيقى في أنحاء الشرقين الأوسط والأدنى ولا سيما في البلاد العربية حيث يكاد الملحنون يجمعون على احتذاء الأسلوب المصري في التلحين والغناء ، وهكذا فرضت مصر شخصيتها الموسيقية القوية على الأمم المحيطة بها .

ونهضة الموسيقية الحديثة في مصر مظهران فريدان :

الأول — انشاء المعاهد الموسيقية على النسق العلمي وأخص بالذكر معهد الموسيقى المسرحية وادخال الموسيقى مادة أساسية في المدارس . وهذا ولا ريب له أثره في مقاومة الأمية الموسيقية التي ما برحت عائقاً لتقدم الموسيقى المصرية على أسس علمية وفنية سليمة

الثاني — اعلاء شأن الفنان . وتلك هي أحدث مآثر جلالة الفاروق المجيدة على أمته وبلاده . ففي عهد جلالته السعيد أنعم على عدد كبير من الفنانين بالأوسمة والألقاب . وبذلك أصبح للفنان في مصر كرامة واعتبار لا يقلان عما هو معروف في أرقى بلاد العالم . ولم يعد ينظر الى الفنان في مصر على أنه ماجن من المجان ، ولكن على أنه صاحب رسالة في خدمة الوطن والمجتمع لا تقل عن رسالة غيره من المبرزون في العلوم والآداب والسياسة .

نسأل الله لفن مزيداً من رفعة الشأن في ظل مولانا الفاروق .

فؤاد محمد شبل